أهّلوا أطفالكم لممارسة حرية الرأي والتعبير

تجربة حية لجمعية أصدقاء **أحمد بهاء الدين**

د. أحمد مصطفى علي حسين
دكتوراه في الإعلام، ومدرب، وكاتب عضو
اتحاد كتاب مصر

تحرير الطفل من الثوابت والتقليد والتلقين يرتبط بممارسته لفنون الإبداع، كالموسيقى والسرد القصصي والمسرح وغيرها، خصوصاً إذا أتيحت المساحة اللازمة لخياله الجامح ؛ ليزداد نمواً عبر استيعاب رغباته الكبيرة في الحركة والابتكار والخلق والتجديد.

> الطفل لديه القدرة على التحرير والتفكير والتحليل واستيعاب المعلومات بشكل أكبر من الكبار

ويمكن أن يتضمن ذلك فنون التحرير الصحفي، كما يجب أن تكون هذه حال مختلف الفنون التي يتم تدريب الطفل عليها.

أما فيما يخص فنون الصحافة، فهذا لأنها في حقيقتها وبطبيعتها نقدية وفكرية، ويمكن أن تعمل على تنمية شعور الطفل بالمسؤولية والضمير، والقدرة على التحليل والتقييم لما يحيط به من عوالم، وهذه الأمور تحدث حين نترك للطفل المساحة الكافية ليتصدى لما يواجهه أو يواجه مجتمعه من مشكلات أو معاناة.

هذا الأمر لا يمكن حدوثه إلا إذا خرجنا عن منطق جعل المقالة وكأنها موضوع تعبير ضمن مقررات اللغة العربية لتصوير محبته ومشاعره تجاه الأم والأب والوطن، فرغم أهميتها فإن مهمة الكتابة الصحفية في حقيقتها هي حب الوطن، من خلال التصدي للخطأ وانتقاد الشائع والموروث، والكشف عن خفايا الشكل الجميل والمنظم.

في الحقيقة لم أكن أتخيل يومًا أن ذلك يمكن حدوثه لأطفال المرحلة الابتدائية بقرى صعيد مصر، حيث التربية التقليدية الخشنة، والمدارس النظامية الصلبة، وأيضًا الخوف والفزع بوصفهما من المشاعر الطبيعية وسط بيئة الثأر والعنف وانتشار الأمية والفقر، فضلاً عن التاريخ الطويل للتهميش الذي عانته مجتمعات الصعيد، وجعل الحرمان ميراثها الخالد.

لكن، حدث ذلك، وعملت مدرباً لأطفال المرحلة الابتدائية بقرى صعيد مصر، ولم يكن ذلك ليحدث لولا ثقة مسؤولي تلك الجهات التي قررت الاستعانة بي، وحتمت الاستعداد لتلك المهمة، وخوض تحدياتها، واستمرت تلك المهمة مع **«جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين»** في مركزها الثقافي بقرية «الدوير» بمحافظة أسيوط، وعلى مدار سنوات عديدة ماضية وإلى الآن؛ إذ من ضمن أنشطة الجمعية إعطاء الفرص والمنح المجانية لمن يرغب من طلاب المدارس في تعلم فنون الصحافة كغيرها من الرسم والموسيقى والفنون الشعبية والمسرح والأدب، وبالتالي كانت مهمة تأهيل الأطفال لكتابة المقالات والتحقيقات والتقارير والأخبار، بهدف تنمية قدرات الطفل على ممارسة حرية الرأي والتعبير.

ولعل شغف الجمعية التي أسسها أصدقاء وأسرة الكاتب الراحل الكبير أحمد بهاء الدين في ذلك ؛ لكون الكاتب العملاق أحمد بهاء الدين (1927 – 1996م) تشكلت معالم هويته في الفكر والكتابة منذ كان طفلاً، فقد كان نهماً للغاية إلى المطالعة، بل إنه بدأ مراسلة الصحف ونشر مقالاته منذ كان طالباً، فأخذت موهبته حقها في الرعاية في أثناء الطفولة، وأخذت أفكاره في الانطلاق والتكوين

> الإبداع هو جوهر الكتابة الصحفية لكونها تتعلق بإعادة استكشاف الواقع والكشف عما نجهله

بلا حدود، بفضل مناخ تربوي أتاحه الأب والأخوات بعد الرحيل المبكر للأم، كذلك احتضان كبرى المجلات المحترمة لمقالاته التي كان يرسلها وهو طالب.

وبهذا حصد الوطن العربي نجماً مزدهراً تشرق به شمس الأمل والتحضر، حيث عاش لأجل التحرر والعروبة وقضايا المهمشين، وناضل في سبيل العلم والبناء والتحضر ورفع الوعي والانتماء ومواجهة الفساد وقضايا الإصلاح السياسي والاجتماعي والبيئي والقانوني وغيرها، ومن ثم تحرص الجمعية على برامج تنمية مهارات الكتابة للطفل ضمن أهدافها.

المهمة الصعبة

ينطوي ذلك على تعلم الطفل ممارسة فنون الصحافة، ككتابة المقالات والأخبار والتحقيقات، وفي الوقت ذاته التربية الإعلامية المعنية برفع قدرة الطفل على عدم الإيمان بشكل مطلق بما يتم بثه أو نشره في وسائل الإعلام أو وسائل التواصل الاجتماعي أو الحياة اليومية العادية، لكن قياس مدى التوازن وعرض وجهات النظر والحياد والموضوعية وعمق التناول، ومنطقية المعلومات.

كانت المهمة صعبة لشخص مثلي يعتاد تدريب الشباب وهو الأمر بالغ السهولة، لأن فنون الصحافة تتطلب ثقافة وخبرة حياتية وشخصية قوية تستطيع بناء علاقات مع المصادر، إلى جانب متطلبات تحرير وصياغة موضوع صحفي جذاب، وما تفترضه من علاقة باللغة وتقاليد وقيم المجتمع، وفهم الجمهور المستهدف، إلى جانب الوعي بالقيم المهنية.

والمشكلة الأخرى، تتمثل في التفاوت الكبير بين المدارس النموذجية في العاصمة أو الإدارات المتميزة بعواصم المحافظات، وبين تلك المدارس الحكومية الموجودة في القرى البعيدة على هوامش وأطراف المحافظات الفقيرة، والتي عادةً لا يتم العناية بها بالشكل الكافي، ولا تجد الرعاية والاهتمام الذي يحظى به غيرها، إلى درجة ما هو معروف من تحقيقات صحفية منشورة لمدارس بلا مقاعد بتلك المناطق، ومن ثم غياب نشاط الإذاعة والصحافة المدرسية، وهي إن حدثت تكون مقصورة بشكل روتيني على تعداد خمسة طلاب بالمدرسة، ويمكننا ملاحظة النمطية في الصحافة المدرسية التي تتعلق بالموضوعات المقررة والموجهة كمناقشة التنمر المدرسي، أو إجراء حوار للتحدث عن الإنجازات المدرسية، أو الإشادة بدور المعلم، وكلها تقتل موهبة الطفل.

ومن هنا وإذا كان الإبداع هو جوهر الكتابة الصحفية لكونها تتعلق بإعادة استكشاف الواقع، والكشف عما نجهله، أو استكشاف الخطأ فيما نراه عاديًا، أو إضافة الجديد لما قتل بحثًا، أو الشجاعة في انتقاد الموروث المكرس للضعف، إلى جانب الموضوعية والتوازن في توضيح الجوانب المشرقة والمظلمة داخل كل صورة جميلة، لأن الكمال لله.

لذا فإن الصدمة الأولى تمثلت في أن الأطفال وعلى عكس الكبار لا تبهرهم المعلومات الكثيرة التي يفتخر بها أي مدرب، ويصيبهم الملل السريع حال وجود شرح توضيحي لأي فن من الفنون، أو للقيم المهنية، وتحدث المفاجأة حين تعقد اختباراً فجائياً فلا تجد مردود الساعات الطويلة المبذولة في إعداد المادة وشرحها وتبسيطها، وهو أمر لا يحدث مع الكبار نهائياً.

هنا، تتحتم معرفة أن استجابتهم مقرونة بخمسة أشياء، هي: اللعب والمشاركة الجماعية والقصص التي يتم توظيفها والمكافأة والرحلات، إلى

جانب الإكثار من الأساليب التدريبية المعنية باستثمار القدرات الفكرية والتحليلية، كالعصف الذهني، والمحاكاة والنماذج، والمناظرة بين طفلين حول موضوع صحفي، ولعب الأدوار، والمساءلة.

ومن المهم هنا، معرفة طبيعة الأطفال وثقافتهم، ولهذا قام صديقي الأديب شعبان المنفلوطي مدير المركز السابق، بممارسة إحدى الألعاب الحركية الملائمة لأطفال القرى، ليطالبهم بالوقوف حوله على هيئة دائرة، ثم يبدأ سرد قصة لشخص غامض لا أحد يعلم سبب متاعبه الصحية، ويطلب من كل طفل وطفلة أن يمثل اتجاهه ونظرته حين وقع صريعًا. بالطبع، على ألّا يعمد طفل إلى تكرار ما فعله الأطفال الآخرون في الصوت والحركة، وهنا كان كل طفل يجتهد ليفكر في طريقة لم ينفذها زميله حتى يتجنب خسارة اللعبة، ويضاف إلى ذلك الألعاب الشائقة المعروفة كالكرة وحل الألغاز، بل حتى ألعاب الكبار، كرسم عشرين دائرة وطلب تخيل ماذا يمكن أن تكون من أشياء كطوق وإطار سيارة وقمر...إلخ.

المشاركة الجماعية

أما المشاركة الجماعية، سواء في الممارسة التدريبية أثناء الورشة، أم ممارسة لعبة، فهي مفيدة للغاية، خصوصاً عندما يتم الدمج بين أطفال لا يعرفون بعضهم ؛ لأنها ستعمل على رفع مستوى الطفل الأقل، وكذلك تعمد إلى تنمية قدراتهم الشخصية، إلى جانب غرس سلوك التشاور واحترام الآخر، وبالطبع لا بد من أن يتابع المدرب التجاوزات ليضبطها. بينما يتعلق جانب تحضير أفكار القصص بمجالين؛ قصص جاهزة

وملائمة، وقصص يمكن استكمالها معًا، بمعنى السرد الجماعي للقصة.. على سبيل المثال؛ أبدأ سرد حكاية قط خرج للتنزه، ثم حدثت مفاجأة، وأترك لكل طفل أن يؤلف ما حدث من نسج خياله، ويكمل زميله ذلك، وببعض التعود يعتاد الطفل ألا يغلق القصة ويضيف إليها جانباً مشوِّقًا ومثيراً ومدهشاً.

في حين أن المكافأة التي ينتظرها الطفل لا تتجاوز قطعة حلوى ملونة، **«بنبونايـة جميلـة»**، وربما هي حال الطفل في كل مكان، ولكن ينبغي في الوقت ذاته محاولة التوسع بالمكافآت قدر الإمكان، إلى جانب وجود مكافأة للجميع، تشتمل من لم يشارك، وفي ذلك كان يتم توزيع أعداد من مجلة «العربي الصغير» الكويتية، لتضمنها محتوى مشوِّقًا وجذاباً يلائم الجميع، إلى جانب ثراء محتواها الفكري والثقافي.

وكان اللافت للنظر، أن الأطفال في القرى عادة لا تصل إليهم صحف الطفل، وبهذا استثمرنا توزيع أعداد من مجلة «العربي الصغير» لتحديد مدة أربعة أيام لقراءتها ومناقشتها، وبالفعل فوجئت بأن 90% نفذ المهمة وكانت بالنسبة إليهم فتحاً كبيراً، لأن الطفل يحب أن يذكر رؤيته التحليلية لمقالة أو قصة أو موضوع أعجبه، وبذلك تستهويه الكتابة بشكل أكبر.

أما الرحلات، فقد رأت «جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين» أن تكون مسايرة للتدريب، وبالتالي نظمت رحلة لتلفزيون شمال الصعيد بالمنيا، وهنالك انبهرت المخرجة والمذيعة بمستوى الأطفال وقدرتهم على الحوار والمناقشة، وفهمهم للإعلام رغم كونهم في المرحلة الابتدائية، واستمتعت بمواهبهم ومنها مواهب في الغناء أيضًا، فالفنون تتلاقى.

والأكثر دهشة بالنسبة لي، أن الأطفال لديهم استعداد كبير للغاية تجاه ممارسة فنون السرد الصحفي، بل لديهم قدرة عجيبة على اكتشاف الخلل في بيئاتهم المحلية أو انتقاد ما لا يعجبهم، أو التوصل إلى أفكار ربما لا يفكر فيها الصحفي الكبير، ويمكنك أن تندهش مثلي حين ترى طفلة تكتب لي عنواناً صحفياً لافتاً «محاكمة المحكمة» وذلك في احتجاجها على

حرية الرأي والتعبير حق أصيل للطفل وليست منة ولا فضلاً من أحد

ممارسة بيئية لم تعجبها تمت في إحدى المحاكم، أو تشاهد طفلاً آخر يكتب عن سوء تعامل التجار، أو حفر المشروعات القومية ومخاطرها على حياة البسطاء، أو الوساطة والفساد أو الاعتقاد بوجود العفاريت، أو مشكلات التنقيب بحثًا عن الآثار غير الموجودة، أو غياب الإنارة عن بعض المناطق، والبعض يكشف عن بيت له حكايات مهمة، وآخر يستهويه الترويج للسياحة، وطفل يتناول معاناة المزارع، وغيرها من أشياء.

ورأينا حجم قدرات الأطفال في التدريبات الميدانية، كما حدث أثناء مقابلة رئيس الوحدة المحلية أو مدير مركز التأهيل، فقد كان المسؤولون في غاية الانبهار من وجود أطفال يسألون ولا يكتفون بأخذ الإجابة المعطاة لهم، ولكن يتناقشون في الإجابة للتحقق من مدى شموليتها ومصداقيتها ودقتها، أي ما نسميه في الصحافة بالرغبة في الوصول للكتابة المتعمقة التي لا تجعلك تتساءل أو تبحث بعد القراءة، لأنها تستهدف الوصول إلى الحقيقة الكاملة وبشكل موضوعي. إلى درجة أن سكرتير الوحدة دمث الخلق، ورئيس الوحدة المحلية بشخصيته الجميلة والوَدُد أصرا على منح الأطفال أرقام هواتفهما الشخصية لإبلاغهما بأي خلل أو مشكلة، أي معاملتهم كأنهم صحفيون كبار، وفي حقيقة الأمر والمدهش أن الأسئلة هي «ابنة الأطفال» فلم يتم توجيههم، بناء على مستهدفات البرنامج التدريبي بأن نصل بالطفل إلى مرحلة الاستقلالية والوعي؛ أن يدرك الطفل طبيعة المسؤولية الصحفية والأسئلة التي يمكن توجيهها، فضلاً عن كيفية الوصول إلى هذه التساؤلات بالاستناد إلى أرقام أو وقائع أو مشاهدات حية ومتحققة لديهم، وليس بناءً على ما يثار أو يسمع أو يكتبه شخص في وسائل التواصل الاجتماعي، لأن الموضوعية تقتضي أن نحارب جاذبية ميولنا واهتماماتنا وانتمائنا لأجل الحق والوطن.

اجتماع صالة التحرير

وفي نهاية البرنامج التدريبي، عقدنا اجتماعات صالة تحرير كتلك التي لدى الصحف، بوجود مسؤولي مركز أحمد بهاء الدين الثقافي، وكانت المفاجأة أن الأطفال يستطيعون الدفاع عن الموضوعات التي يختارونها، ولديهم المقدرة بالفعل على النقد والتحليل والابتكار والإبداع، والأهم هو الإيمان بأن حرية الرأي والتعبير حق أصيل وليست منة ولا فضلاً من أحد.

أجبرنا الأطفالُ على أن نمنحهم نماذج للموضوعات الصحفية المتميزة بصحف الكبار، وأبهرنا الأطفالُ بما أنتجوه من عشرات الموضوعات الثقيلة والكبيرة بإبداع من الأيدي الصغيرة، ورغم ما بها من أخطاء لغوية فإنها تُغتفر في ظل واقع التعليم بالقرى، ومقارنة بعمر الأطفال أنفسهم، والأعجب أن الأطفال صاروا يطالبون بكتب متخصصة في الصحافة لقراءتها.

لقد صرت مؤمنًا بأن الطفل لديه القدرة على استيعاب المعلومات بشكل أكبر من الكبار، ولديه القدرة على التحرير والتفكير والتحليل بشكل يفوق الكثير من طلاب الجامعة، هذا إن أحسنا إعدادهم واستيعاب طبيعة مرحلتهم العمرية، إذ يجب أن يتخلل التدريب الألعاب والمكافآت والقصص والرحلات والمشاركة، فضلاً عن الأساليب التدريبية والزيارات الميدانية.

بهذا، وحال الاستمرارية والتكرار في كل مكان، يمكننا أن نحصد قدرات ومواهب جميلة يمكنها بالاستمرار أن تصنع مستقبلًا أجمل، وبمزيد من الرعاية يمكنها أن تصير أعلاماً في الفن أو الثقافة أو العلوم، فجميع الطرق بابها واحد؛ وهو الشخصية المبدعة والخلاقة القادرة على الاستقلالية والتحليل والتفكير بأنواعه، وربما لمؤسسات التنشئة والثقافة والمدارس دور بالغ الأهمية في العناية بذلك.